رؤية للتنمية الثقافية في الريف المصري
«مشروع مسرح الجرن نموذجًا»

المخرج/ أحمد إسماعيل

يقول شاعرنا الكبير / فؤاد حداد:

ياليل من الحب صاحى
من الشقا نعسان
على كل طوبة ندى وشذى
وأمل إنسان
من الظلام فى الضى
ومن العطش فى الرى
من ألف عام وأنا
عايش فى الزمان الجاى

***

التنمية الثقافية التى نعنيها .. هى عملية منهجية متكاملة، تقوم على الإمكانيات الأصيلة فى الأفراد والجماعات والواقع، لتنمية القدرة العقلية والوجدانية إبداعياً وفكرياً ونقدياً، ولتجسيد وتمثل حزمة من القيم والأهداف، لعل أهمها؛ تعزيز الانتماء، وتنمية الإبداع العام، وتكريس لأهمية العمل الجماعى، وتطوير آلياته،

وإعلاء قيمة التسامح، واحترام الرأى الآخر، ودحض وهم امتلاك الحقيقة المطلقة، حيث تمثل الأخيرة – بشكل خاص – حجر الزاوية فى تجفيف منابع الفكر المتطرف الذى ينطلق منه الإرهاب بكافة أشكاله المعنوية والمادية.

فإن كان مجتمعنا المصرى كله بحاجة إلى هذه التنمية الثقافية للخروج من النفق التاريخى الضيق .. بإبداعات جديدة قادرة على طرح حلول مبتكرة لمشاكل وإشكاليات تكلست، وبنقد كاشف للتناقضات والقصور، وفكر يجيد ترتيب الأولويات ويفرق بين الأساسى الجوهرى والثانوى، وبعث القيم التى تدخلنا فى العصر الحديث للمشاركة فى إنجازاته وغير مكتفية بالاستهلاك والتبعية، ومعالجة جذرية لأشكال التطرف الذى يهدد كل شىء، وتحقيقاً للبهجة كمدخل رئيسى للصحة النفسية المؤهِّلة للتفاعل الإيجابى مع معطيات الحياة.

فإن الريف المصرى بوضعيته السكانية الممثلة لأكثر من نصف السكان، وبقيمه شبه الغالبة على النصف الثانى، وخلوه من أى نشاط ثقافى باستثناء بعض الهياكل الفارغة المحتوى النادرة العدد كبيوت الثقافة، هذا الريف أكثر احتياجاً لهذه التنمية.

والريف المصرى ثانياً – غنى بإمكانياته الطبيعية، وبقيم إيجابية مغمورة، وثقافة شعبية ضاربة بجذورها التراثية فى أعماق التاريخ، وحدود جغرافية نسبية بين القرى تظهر إنجازات كل واحدة وتشجع عليها، وطقس معتدل معظم شهور السنة، وإمكانيات تعاون وتطور طبيعى متسق مع هذه الخصوصية / الهوية.

والريف المصرى – ثالثا – يمثل التحدى الأكبر فى إقامة نهضة شاملة، لكل ماسبق ذكره، ولما يتعرض له من إشكاليات حادة بين القديم والحديث الوافد «فى عدم الاتساق» فى معظم مناحى الحياة بدءا من الأفكار والقيم، ومرورا بأنماط الإنتاج ووسائله، وانتهاء بالمنتجات المتداولة فى الحياة اليومية والتى هى فى معظمها من إنتاج خارجى، إنه يشهد – فى إطار المجتمع – أكبر عملية استلاب للعقل، وغياب للتخطيط، وإهدار للموارد البشرية والطبيعية.

والريف المصرى هو موضوع المؤتمر الذى نقدم هذه الورقة فى إطاره.

***

البعد النفسى يمثل مدخلاً وركناً أساسياً فى رؤيتنا للتنمية الثقافية المنشودة، حيث يقول العالم النفسى الدكتور/ مصطفى سويف «إن النشاطات والكيانات الثقافية تتعامل مباشرة مع مايمكن اعتباره جوهر الجدارة الإنسانية فى نفوسنا»[1].

ويحذر من العبث بالقيم الرئيسية التى تضطلع بها وتجسدها هذه النشاطات لأن ذلك يؤدى إلى خطر الدمار؛ لما تقوم به هذه النشاطات من تخفيف لضغط البيئة الاجتماعية على الإنسان، من غلبة عناصر التهديد على الأمان، والحرمان على الإشباع، والتثبيط على التشجيع والإعلاء. وهى كلها عوامل تدفع بالحالة إلى المشقة والإنهاك النفسى .. ومن ثم الإحباط والاكتئاب، مما يؤدى فى النهاية – كما يؤكد معه الكثير من علماء النفس – إلى الإصابة بأمراض بيولوجية كالإرهاق والصداع وخلل الضغط، دافعة للنقوص من ناحية، أو باحثة عن مسالك تعويضية تتسم بالعدوان أو العنف من ناحية ثانية، ذلك أن « منظومة القيم التى يتبناها الإنسان تتفاعل فى كل لحظة مع ميزان حكمنا على جدارة أنفسنا وعلى جدارة انتماءاتنا، وحرى بنا أن نعرف أن هذين المحورين يعتمد عليهما كل الاعتماد فى معظم ما نبذل لإنجاح جهودنا التربوية مع النشىء»[2].

ولما كان الإرهاب الراهن يمثل الخطر الأكبر على حق الحياة فضلاً عن كونه عائقاً لايستهان به أمام إمكانيات التطور، وبما يضمره من خواء روحى، و«غسيل مخ» لحشو العقل بأفكار متطرفة مستندة على الخواء والخلل النفسى، ومتغذية بخطط تآمرية – استعمارية فى غالبها – ويديرها من يتوهمون أنهم يمتلكون الحقيقة المطلقة لتكفير واستحلال دم من يرونهم كذلك، لتغذى فى النهاية من لديهم استعداد للعنف

(١) د. مصطفى سويف – دراسات نفسية فى الفن – القاهرة للنشر والتوزيع – ١٩٨٣ – ومقالات فى مجلة الهلال القاهرية فى الفترة من ١٩٩٤ : ١٩٩٩.

(٢) المرجع السابق.

ممن يكرهون البشر والشجر وحتى أنفسهم، ليجهزوهم لتنفيذ المخطط.

فإن إعطاء أهمية خاصة لمحاولة تجفيف منابع وعوامل الفكر المتطرف، لهو من مقتضيات وأوليات التنمية الثقافية، وما استشهدنا به من دراسات عالمنا الكبير ماهى إلا فقرات قليلة من بحوثه المستفيضة، إلا أنها عظيمة الدلالة لرؤية شاملة لنهوض مجتمعنا، وباكورة استشراف «خطر الدمار» على حد تعبيره.

وفى مؤتمر «العنف التلقائى الجماهيرى فى المجتمع المصرى الذى أقامه المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية فى يوليه ١٩٧٦، توصلت دراسة ميدانية حول «الظروف المدعمة لانتشار العنف» إلى خصائص مشتركة لجماعات العنف منها؛ الشعور بالحرمان النسبى، تجانس هذه الجماعات وهويتها الموحدة، أو الحالة العصبية للمجتمعات الانتقالية، العداء التاريخى للشرطة فى حد ذاتها أو كرمز للسلطة، اللجوء إلى وسائل تجنب مرتكبى هذه الأفعال من المسئولية، الإحساس بتهديد شبه دائم لمصالحها وحقوقها، اللجوء إلى العنف كوسيلة نهائية.[1].

كما أثبتت دراسة ميدانية أخرى فى المؤتمر السنوى الرابع حول «الأبعاد الاجتماعية والجنائية للعنف فى المجتمع المصرى عام ٢٠٠٢ لنفس المركز؛ أنه لايوجد ميل طبيعى للعنف أو العدوان فى الغالب، ومن السمات النفسية لمرتكبى جرائم السلوك العنيف فى المجتمع المصرى، الافتقاد إلى بيئة آمنة، التقدير السلبى للذات، عدم التجاوب الانفعالى/ عدم القدرة على التعبير بتلقائية، مما يؤدى إلى عدم التواصل الإنسانى، فضلاً عن عدم الثبات الإنفعالى[2].

(١) أ.د. على ليلة – العنف فى المجتمع المصرى، العوامل والملامح، تحليل بنائى للموقف والسياق – وثيقة مؤتمر العنف التلقائى الجماهيرى فى المجتمع المصرى – المركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية – القاهرة – يولية ١٩٧٦.

(٢) سوسن فايد – السمات النفسية لمرتكبى جرائم السلوك العنيف فى المجتمع المصرى – دراسة على عينة من المودعين بالسجون فى مرحلة الشباب – المجلد الثانى – المحور السابع للمؤتمر السنوى الرابع حول الأبعاد الاجتماعية والجنائية للعنف فى المجتمع المصرى – المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية – القاهرة – من ٢٠ : ٢٤ أبريل ٢٠٠٢.

فيما يضاف إلى ذلك خاصية للعنف السياسى؛ حيث أنه «فعل يستخدم أدوات القوة العنيفة لتحقيق أهداف يترتب عليها آثار بعيدة المدى قد تتعدى العنف السياسى إلى العنف الإجتماعى والعنف الأسرى، بل إنها قد تؤدى إلى صور من العنف البنائى والرمزى تؤثر على أزمة طاحنة لشعب من الشعوب. العنف هنا هو فعل مجزوم تسبقه كل أدوات الجزم التى تنفى الآخر. ولذلك فإن العنف السياسى يعكس الأحادية الجازمة التى لاتقبل إلا ما يتفق معها، وتنظر إلى الآخر المختلف على أنه منحرف أو مجرم أو منشق أو خارج على النظام أو كافر أو مرتد أو محرض أو مخرب أو إرهابى .. الخ.

هذه المسميات النابعة من النظرة الأحادية للقائم بفعل العنف السياسى الذى لا يتحدث إلا بلغة جازمة، مؤكدة لا يأتيها الباطل من بين يديها أو من فوقها»[1].

ونحن نقترب من الملامح والدوافع الاجتماعية والنفسية والسياسية لظاهرة العنف والإرهاب، تتضح لنا أهمية النشاطات الثقافية .. الأدبية والفنية والفكرية، ودورها المهم فى معالجة هذه الدوافع / المنابع والحد منها أن لم تجففها، وذلك بجانب أهدافها الأخرى المشارة إليها فى مقدمة هذه الورقة، فكيف يكون ذلك؟

***

مفهومنا للثقافة كما يقول المفكر / محمود أمين العالم «ليست فروع المعرفة الفكرية والأدبية والفنية دون المعرفة العلمية والخبرة العملية الحية والبعد الاجتماعى التاريخى.. ودون الثقافة الشعبية باعتبارها لا ثقافة، أو تجسيد للتخلف الثقافى كما تزعم بعض الدراسات. لهذا فثقافة المجتمع هى ثمرة مساهمة مشتركة لكل أفراده وطوائفه وطبقاته. يشترك فى صياغتها الفلاح والعامل والعالم والمفكر بل والأمى. ولهذا لا نستطيع أن نتجاهل كذلك التحيزات الثقافية داخل

(١) د. أحمد زايد – قراءة فى أدبيات العنف – رؤية سوسيولوجية – المحور الثانى – المجلد الأول من أعمال المؤتمر (السابق ذكرة رقم ٤).

المجتمع الواحد، على أن هذه التحيزات لا تلغى الوحدة الكلية للثقافة بل لعل وحدة البناء الثقافى تتشكل خلال هذا التميز والتنوع الثقافى»[1].

إنها بإيجاز وفق قول المفكر/ عبدالحميد حواس «حصيلة الخبرة التى راكمها أبناء المجتمع وهم يحققون وجودهم الإنسانى، وكونو من خلالها رؤية فى الحياة وأسلوباً فى العيش»[2].

وغنى عن الاستفاضة فى وظائف فروع المعرفة الفكرية والأدبية والفنية من منظور الثقافة الرسمية، فمنذ كتاب «فن الشعر» لأرسطو- قبل الميلاد بأربعة قرون تقريبا- يوجد اتفاق على ضرورة وأهمية «الجمال الفنى» بتجلياتهما المختلفة والمتنوعة على مر العصور حتى يومنا هذا؛ من التآخى أو التوحد مع البطل وإثارة عاطفتى الخوف والشفقة لإحداث التطهير الإنفعالى وإعادة الاستقرار النفسى، إلى إرهاف المشاعر أو تعميق الوعى بالذات أو بالمجتمع أو بكليهما معاً، أو تحقيق المتعة الروحية، وهى كلها وظائف عليا ذات طابع عالمى تعتمد على تلقى فروع الأدب والفن، لذلك لاتدخل مباشرة فى موضوعنا الخاص ب «التنمية الثقافية» وإن كانت غير مستبعدة بطبيعة الحال لطبيعتها كنشاطات ثقافية. حيث أن للتنمية منهاج آخر سوف نأتى إليه بعد قليل.

فيما نتوقف أمام ثقافة أخرى، هى الثقافة الشعبية، «حيث أنها ثقافة السواد أو عموم الناس فى الريف والبادية والحضر »ويكمل الأستاذ/ حواس« ومع أن مفكرى النهضة تكونوا من بين أبناء الثقافة العالمة _الرسمية_، فإنهم أدركوا أن عملهم فى حل الازدواجية الثقافية المحلية لن يكون فعالاً الا بوضع الثقافة الشعبية فى الاعتبار والتعريف بمظاهرها والجدل مع مكوناتها وحسن تفهمها، بحيث يمكن فرزها وإعادة تقييمها على أسس رشيدة، ومن ثم يمكن دمج الإيجابى منها فى البناء الثقافى الجديد المتجاوز لكل الإزدواجات القائمة؛ أى بناء

(١) أ. محمود أمين العالم – جريدة أخبار الأدب – العدد ٤٢-٢٩/ ٧/ ٢٠٠١.

(٢) أ. عبدالحميد حواس – ترجمة وصياغة خاصة لتعريف اليونسكو للثقافة – مطبوعات خاصة.

الثقافة الوطنية الناهضة»[1].

تكاد تكون هذه الفقرة هى الأساس المنهجى الذى نقيم عليه مناهج العمل لتحقيق الرؤية للتنمية الثقافية المنشودة، كما يتجلى ذلك فى «مشروع مسرح الجرن للتنمية الثقافية .. وبناء المسارح المفتوحة» الذى نتحدث عنه فى نهاية هذه الورقة

إن الازدواجية الثقافية المتمثلة فى ثقافة رسمية وافدة من الغرب نقلاً أو بتجليات خاصة، وأخرى شعبية .. ليست تناقضاً فكرياً فحسب، وإنما تحمل انفصاماً ذو دلاله على انحسار الأولى وعدم فعاليتها إلا فى حدود النخب من ناحية وانحسار الثانية بعيداً عن مركز القرار ونهضة المجتمع من ناحية أخرى، وفى كلا الحالتين تفقد الثقافة الكثير من دورها وفاعليتها.

واعتماداً على مفهومنا السابق عن الثقافة، فكل مواطن لديه ثقافة، وأى تفعيل لنشاطات ثقافية يضع فى اعتباره التفاعل / الجدل مع ثقافة المواطنين / الجمهور وليس مع فراغ. والتنمية الثقافية خاصة تضع فى اعتبارها الثقافة الشعبية أساساً ومنطلقا، مع الاستفادة بداهةً من منجزات الثقافة الرسمية / عالمية الطابع والماهية، بذلك تتسع مساحات التفاعل الثقافى على نطاق أوسع لعموم الناس الذين يرون أنفسهم وذواتهم وحيواتهم فى هذه الثقافة، ولتقوم الثقافة فى هذه الحالة بدورها الفعال المنوط بها.

ويقول المفكر الإقتصادى الدكتور/ جلال أمين فى عام ١٩٨٣ « .. وإذا كان هناك خط أساس يمكن تمييزه فى مجرى حياتنا الثقافية فقد كان هو هذا السؤال: ماهو سبب ضعفنا وتخاذلنا أمام حضارة الغرب؟ وماهو هذا الذى يملكه الغرب ولانملكه؟ وما الذى يمكن أن نأخذه من الغرب دون التضحية بشخصيتنا وتراثنا؟»[2].

(١) أ. عبدالحميد حواس – أوراق فى الثقافة الشعبية – الهيئة العامة لقصور الثقافة – ٢٠٠٥.

(٢) أ. د. جلال أمين – تنمية أم تبعية إقتصادية وثقافية – القاهرة للنشر والتوزيع – ١٩٨٣.

ثم يعطنا مدخلاً للإجابة فيقول «إن مشكلتنا الأساسية ليست فى انخفاض متوسط الدخل بل هى أننا أمة مقهورة ومغلوبة على أمرها، تريد استعادة سيطرتها على مصيرها وتحقيقا لذاتها، واقتدارها مرة أخرى على تقديم مساهمة خاصة بها لايمكن أن تقدمها أمة سواها» (١).

ويضيف المفكر الدكتور/ سمير أمين فى عام ٢٠١٥ «.. أن التوجه المستمر للرأسمالية نحو التوسع أدى إلى تبنيها استراتيجيات وسياسات تستهدف أساساً، القضاء على الزراعة القروية بهدف إعادة إنتاج مسار الزراعة العائلية التى نشأت فى الغرب، وأيضا المزارع الرأسمالية المتخصصة. وهى سياسات ستؤدى إلى تدمير المجتمعات الفلاحية فى آسيا وأفريقيا..» «.. فالمنطق الذى يتحكم فى النظام الرأسمالى المعاصر ليس معنياً بإشباع الحاجات الحقيقية لمئات الملايين الذين يقاسون من الجوع البالغ والفقر المدقع ولكنه معنى بالدرجة الأولى بضمان إضافة الملايين من الدولارات، لأرباح رأس المال العالمى وعملائه المحليين ..» «.. أتصور أن البديل يكمن فى ضرورة «إنعاش الزراعة القروية ولكن المصطلح لايقوم مقام الوصفة السحرية الجاهزة. فتكاد تجربتا الصين و (فيتنام) تنفردان فى هذا المجال...» «وتقع على عاتق الحركة المصرية مسئولية إبداع طريق يلائم ظروفنا الملموسه» «.. فَقَدَ الريف المصرى شخصيته التاريخية ولم يعد فاعلاً فى هيكلة التطور المجتمعى. وفى هذه الظروف لاريب أن يتعرض إنعاش المجتمع القروى فى مصر إلى عقبات أصعب مما هى عليه فى مجتمعات أخرى» (٢).

وفى كلمته الافتتاحية لمؤتمر السياسات الزراعية، أعطى الدكتور/ سمير أمين أهمية خاصة ل «إنعاش الزراعة القروية» بتطوير الإمكانات الذاتية للقرية

(١) المرجع السابق.

(٢) د. سمير أمين – مستقبل الزراعة فى الرأسمالية المعاصرة – دار العين للنشر – القاهرة – ٢٠١٥.
د. سمير أمين – الكلمة الإفتتاحية – مؤتمر السياسات الزراعية – مركز البحوث العربية والأفريقية – أقيم بنقابة الصحفيين – ٣ أكتوبر ٢٠١٥.

وللأوساط الزراعية، وبضرورة اتساع مساحة الاستقلال الاقتصادى[١].

***

وكما أن احتياج السياسة الزراعية فى مصر إلى «إنعاش الزراعة القروية» فإن احتياج السياسة الثقافية فى الريف إلى « إنعاش الثقافة القروية / الشعبية»

وإن إنعاش الأولى «يضع على عاتق الحركة المصرية مسئولية إبداع طريق قروى يلائم ظروفنا الملموسة »[٢] . كذلك فإن إنعاش الثانية يكون «بالجدل مع مكوناتها وحسن تفهمها، بحيث يمكن فرزها وإعادة تقييمها على أسس رشيدة»[٣] .

إنها التنمية إذاً.. حيث هى تطوير للإمكانيات الذاتية، وحيث هى «الفرص الاقتصادية والحريات السياسية وحرية المؤسسات الاجتماعية وتوفير الرعاية الصحية والتعليمية وتشجيع وغرس ثقافة المبادرات»[٤] .

فالتنمية الثقافية التى ننشدها؛ تستثمر الأنواع الأدبية والفنية – بمالها من سمات المتعة والجذب – لتحقيق الأهداف وتمثل القيم السابق ذكرها فى مقدمة هذه الورقة، تحققها للفئات العمرية المستهدفة، للطفولة والفتوة ومطلع الشباب، ممارسة ومشاركة، وفق منهاج نوعى متخصص لكل فرع، فيما تتفق هذه المناهج النوعية على عوامل مشتركة مثل؛ الثقافة الشعبية بعناصرها تمثل الأساس المشترك لهذه الأنشطة، فهى بمثابة المنشأ لجوهر «الجذارة الإنسانية فى نفوسنا»، وتمثُّل قيمها وخصوصيتها الجمالية يعزز الهوية والانتماء من ناحية، ويحقق الإقبال والتفاعل من ناحية أخرى، إنها إبداع الشعب بكل موروثه وتجلياته، ويكاد يكون

(١)د. سمير أمين (المرجع السابق ذكره رقم ١١).

(٢)أ. عبدالحميد حواس (المرجع السابق ذكره رقم ٨)

(٣)أمارتياص – التنمية حرية – ترجمة شوقى جلال – المركز القومى للترجمة – العدد ٩٤٥١ – ٢٠١٠.

(٤)جلفورد.ج.ب، ميادين علم النفس النظرية والتطبيقية – ترجمة يوسف مراد وآخرين – المجلد الأول – ط٦ – القاهرة – دار المعارف – ١٩٩١.

كامنا فى «الجين» النفسى والجمالى.

وكذلك تهتم المناهج بملاحظة الواقع الاجتماعى الملموس والحث على التفاعل معه، حباً ونقداً وتطويراً. وتحقيق البهجة أثناء ممارسة الأنشطة كمدخل رئيسى للصحة النفسية، والحث على التفكير والإبداع والمبادرة فى مواجهة الإتباع والتلقين والتقليد، تنمية للقدرة الإبداعية والنقدية وتحققاً نفسياً للذات وجدارتها، وإيجاد حلول للمشكلات لايكون من بينها العنف كوسيلة، ويمثل هذا أحد جوانب التجاوب الانفعالى بالقدرة على التعبير والإبداع، وفيما يدفع إلى التقدير الإيجابى للذات.

وفضلاً عن ترسيخ قيم العمل الجماعى وتعلم آلياته، هذه القيم المهمة لأى انجاز متكامل، ومما يدعم حالة التضامن والاطمئنان إلى بيئة آمنة، وتحقيق لجانب التجاوب الانفعالى بالقدرة على الحوار والتعبير والثقة والتواصل الإنسانى، وتفعيل لقيمة النسبية والاكتمال بالآخرين، وتعلم الجماعية فى مواجهة الأحادية ووهم امتلاك الحقيقة المطلقة.

تتفق المناهج أيضاً، ومن خلال ممارسة الأنشطة الفنية والأدبية على تعليم التفكير العلمى بأبسط الكلمات والوسائل من خلال المناقشة الجماعية حول الموضوعات الفنية أو الأدبية، سعياً وراء بناء نسق عقلى قادر على ترتيب الأولويات وتحديد المشكلات، وكيفية تقصى أسبابها، إضافة إلى نبذ الخرافات وكل مايخالف العقل.

وإذ يتم كل ذلك بمراعاة الأسس التربوية فى التعامل مع النشىء والداعية إلى التشجيع والإعلاء، والتفهم للسمات النفسية لكل فئة عمرية، فإنه يتبين من كل ماسبق أن التنمية الثقافية المنشودة لاتهدف إلى تأسيس أجيال من الأدباء والفنانين والمفكرين – يفترض أن ذلك منوط بمشروعات أخرى– وإن كانت تنمية مواهبهم واردة فى هذا الإطار، وإنما تهدف إلى تأسيس أجيال فاعلة ومبدعة فى مجال عملها، ومتمثلة للقيم المذكورة، التى هى إنسانية فى الأساس. أن التنمية

الثقافية بمثابة البنية التحتية لمجتمع ناهض.

وجدير بالذكر أن الدراسات النفسية منذ قرابة قرن من الزمن، قد أثبتت إمكانية تنمية الإبداع بالتدريب، وأنه يمكن تعلم الاستجابات المنسجمة غير المتصارعة، مثل دراسات جيلفورد.[1] وكذلك فإن للعمليات المعرفية تأثير على العدوان[2]. فضلاً عن أهمية الاهتمام المعرفى لدى الأطفال فى السنوات المبكرة لتعليمهم كيفية فهم الحياة والأشياء المحيطة بهم، وكيفية التعبير عن مشاعرهم والاهتمام بأنفسهم، إضافة إلى تعلم الرموز والأشكال والاعتماد على النفس والتصرف فى المواقف بطريقة صحيحة تتفق مع قيم المجتمع المحلى والدولى[3].

إضافة إلى هذه الأهداف المذكورة، فإن كل نوع من الأنواع الأدبية والفنية التى يستثمرها المنهاج العام للتنمية الثقافية، كل نوع له خصائص فنية وقيم جمالية وفكرية مهمة، سوف نتناول بعضها عند الحديث عن المشروع الذى نقدمه كنموذج.

غير أننا نود أن نشير إلى جانب آخر من جوانب هذه التنمية، وهو خاص بتنشيط إبداعات الكبار من الرجال والسيدات، وفق ماتتميز به القرية أو المنطقة، وهى إبداعات أكثر قرباً من إبداعات الثقافة الشعبية، تنشيطاً ببرامج عمل تصمم خصيصاً على ضوء هذه الإبداعات، وتقدم فى احتفاليات تشيع حالة البهجة والتضامن، تغليبا لإحساس الأمان على التهديد، وتخفيفاً لضغط البيئة الاجتماعية ومعالجة فنية لحالات المشقة والإنهاك النفسى، وتعزيزاً ل «إحساس الجدارة الإنسانية».

(١)ظهران. حامد – الصحة النفسية والعلاج النفسى – عالم الكتب – القاهرة ١٩٧٧.

(٢)بياجيه وجرودم بريز – عن كتاب الطفل من الحمل إلى الرشد – دار القلم للنشر والتوزيع – الكويت ١٩٨٩.

(٣)أحمد إسماعيل – «المسرح القريب.. تجربة شبرا بخوم المسرحية» –الهيئة العامة لقصور الثقافة – سلسلة إصدارات خاصة – ٢٠٠٥.

وقد اقتربنا مع مفكرينا – وبفضلهم – فى أكثر من جانب إلى أهمية إمعان النظر والأمل فى الإنسان.. ثقافته وذائقته الجمالية وجدارته الإنسانية، والى الواقع الملموس.. طبيعته وخصوصيته وإمكاناته، والنظر إلى اتساق الإنسان مع هذا الواقع بجدارة الانتماء، ومع نفسه بالتقدير الإيجابى، ومع الآخر فى استعادة السيطرة على المصير والسعى المشترك نحو التحقق الإنسانى.

إذاً نحن نتحدث عن «بناء الثقافة الوطنية الناهضة» عن .. مقومات الوطن الناهض.

مشروع «مسرح الجرن للتنمية الثقافية في الريف المصري وبناء المسارح المفتوحة» نموذجاً

على خلفية تأسيسي لتجربة شبرا بخوم المسرحية ومسئوليتي عنها منذ عام ١٩٧٣[١]، دعيت في نهاية عام ٢٠٠٥ من قبل الفنان الدكتور/ أحمد نوار رئيس الهيئة العامة لقصور الثقافة لتقديم مشروع مشابه ويمكن تعميمه في عديد من القرى على مستوى الجمهورية.

وبعد المناقشة، تم الاتفاق على تقديم مشروع «التنمية الثقافية في الريف المصري.. وبناء المسارح المفتوحة». وفي إطار اعتماد مجلس إدارة الهيئة أصبغ اسماً مختصراً ليصير بعد ذلك «مشروع مسرح الجرن بنفس محاور وأهداف العنوان الأول»[٢].

المشروع يقوم على ثلاثة محاور ؛ الأول تنمية ثقافية لأطفال المرحلة الإعدادية بالقرى، وذلك بتفعيل (٧) سبعة أنشطة أدبية وفنية هي : القصة، الشعر، جمع

(١) ترجع تسمية مجلس إدارة الهيئة إلى الشق الخاص ببناء المسارح المكشوفة / على غرار مسرح شبرا بخوم، وبما يحمله مسمّى «الجرن» من دلالة تشير إلى فنون القرية.
الأساتذة والأدباء والفنانون الذين وضعوا مناهج المشروع :-
عبد الحميد حواس : مدخل إلى الثقافة الشعبية، أيمن عامر ومحمد الرخاوي .. في تنمية الإبداع (مدرسة د. سويف)، وفاء محمد متولي .. استخلاصات ميدانية في الدراما النفسية، سيد البحراوي ويوسف أبو رية ورجب الصاوي . ومحمود الورداني، وعماد مطاوع.. في الأنواع الأدبية. (وهالة البدرى حالياً)، سمير جابر في الألعاب الشعبية، محمد عمران (ومنير الوسيمى حالياً) .. في الغناء الشعبي، سميح شعلان (ودعاء صالح) .. في الحكاية الشعبية، مسعود شومان .. في الموال القصصي.

(٢)ناجي شاكر، عبد الوهاب عبد المحسن، هاني هجرس، سعيد أبو رية، أحمد صلاح الدين التهامي، محمد أباظة، وأحمد الجنايني في فروع الفنون التشكيلية (ومحمد فوزى حالياً مع فصل فن العرائس كنشاط مستقل).

حكايات القرية ، الألعاب الشعبية الخاصة بهذه المرحلة السنية ، وكذلك الأغاني الشعبية، الفنون التشكيلية ، المسرح ، ويتم التفعيل داخل المدرسة وأثناء الدوام الدراسي ، بتخصيص ساعة لكل المدرسة بعد الفسحة مباشرة لمدة يومين في كل أسبوع على مدار ثلاثة شهور ، لتقام فيها هذه الأنشطة.

والمحور الثاني خاص بخطة وتصور لبناء مسارح مفتوحة في القرى الأم ، وفق مدرسة العمارة البيئية للمهندس المصري العالمي حسن فتحي ، وهي مستوحاة من العمارة المحلية وقليلة التكلفة وبسيطة ، ولكنها مهمة لإتاحة مشاهدة جيدة للعروض والاحتفالات بما تتسم به من زاوية الرؤية والاستماع التي توفرها مدرجات الجمهور.

والمحور الثالث يتعلق بتنشيط إبداعات القرية للفئات العمرية الأكبر سناً،

ولما كنا قد تحدثنا فيما سبق عن الأساس النظري والسمات العامة لمناهج العمل ، وكذلك عن طبيعة المحور الثالث ، فقد أجلت الحديث عن القيم والأهداف الخاصة بكل نشاط إلى حين الحديث عن المشروع.

لذلك نتوقف بإيجاز شديد حول ذلك ، منوهين بداية بمن وضع مناهج العمل من كبار الأدباء والأساتذة والفنانين ، ونخبة متميزة في مجالات التخصص[1]، وشاركهم المشرفون الفنيون للأقاليم الثقافية وهم من كبار مخرجي الثقافة الجماهيرية[2]. فضلاً عن دورنا التنسيقي العام.

في القصة والشعر تتجلى المعرفة بالنوع الأدبي، والحث على التجربة وتشجيع الخيال وتنمية الرأي الخاص واحترام كل الآراء واحترام اللغة وتقديرها كمفتاح

(١)مصطفى يوسف ، حمدي حسين ، وأحمد إسماعيل في التجربة المسرحية الإبداعية (انظر كتاب مسرح الجرن – عماد مطاوع – الهيئة العامة لقصور الثقافة – مطبوعة خاصة – ٢٠٠٨).

(٢)المشرفون الفنيون للأقاليم الثقافة .. المخرجون الذين شاركوا في وضع المناهج وأشرفوا على تنفيذها بالمواقع / المدارس ؛ سمير العدل .. إقليم شرق الدلتا . عبد العزيز محمود .. إقليم غرب ووسط الدلتا .عزت زين .. إقليم القاهرة الكبرى وشمال الصعيد. رشدي إبراهيم ومجدي مرعي .. إقليم القناة وسيناء. أسامة عبد الرؤوف .. إقليم وسط وجنوب الصعيد.

للتعبير عن الذات وعنوان لتقدير الآخرين لهذه الذات ، وربط الأطفال بمجتمعهم ، والمحافظة على روح الطفولة ، وإكساب الثقة ، والتعلم بالخيال والمتعة الفنية.

وفي جمع حكايات القرية يتجسّد التقدير لثقافة الأجداد ، وتمثّل القيم التي تحملها هذه الحواديت ، تأكيداً للهوية دون نصائح نظرية ، وتنمية القدرة على الفعل خارج الإطار المؤسّسي ، وتتم عملية التعلم بالممارسة .

والألعاب الشعبية تؤكد الذات وتحقق البهجة ، وتنمي الجسد والروح الجماعية والتجانس.

والأغاني الشعبية تجسد القيم الفنية والفكرية والتربوية لهذه المرحلة السنية ، وتنمي الذائقة الموسيقية الغنائية ، وتبعث على التفاؤل والبهجة والمرح.

وللفنون التشكيلية قيم وأهداف عدّة ؛ فقيام الطفل بصناعة عروسته تنمي إبداعه التعبيري والتشكيلي ، واستخدام الطين بمرونته ينمي القدرة على الابتكار والتجدد وتجسيد الخيال ، وتحويل العناصر البيئية ومخلفات القرية إلى أعمال تشكيلية يدفع إلى تحويل القبح إلى جمال ، والرسم والتشكيل بكل أنواعه ينمي القدرة البصرية والإيقاع والإحساس بالألوان ، ويعيد النظر في تأمل جمال الطبيعة والحياة.

والتجربة المسرحية الإبداعية لها أهداف أكثر تركيباً ؛ المشاركة والتفاعل الجماعي مع تنظيم العمل يؤديان إلى أفضل الصيغ الفكرية والفنية ، ففي حماية اللعب والتمثيل يتم تحرير الكوامن المكبوتة ، «إن فعل التمثيل يستحث وعياً بأن كل شيء خارجنا هو في الحقيقة داخل في إطار فهمنا وإمكاننا ، وهو وعي يجعلنا أكثر حميمية مع مستوى أعمق من التعاطف والروحانية والاتصال بالآخرين ، إنه وعي يجعلنا أكثر اتساعاً ورحابة[1]. أن الإبداع الجماعي تدريب على البحث الخلاق والفكر المبدع والتجسد المبتكر ، فضلاً عن تمثل وترسيخ آليات العمل الجماعي.

(١)رينيه – الدراما التنموية – عرض وتقديم د. محمد الرخاوي في الورشة الخاصة بإعداد المنهج والكوادر الأساسية.

قدم هذا المشروع في ديسمبر ٢٠٠٥ ، وتم بحث آليات تنفيذه بمشاركة رؤساء الأقاليم الثقافية حتى يونيه ٢٠٠٧ ، وبدأ تفعيله بخمس مدارس إعدادية في العام الأول، وتزايد عدد المدارس حتى وصل إلى إثنتي عشرة مدرسة إعدادية في قرى المحافظات المختلفة ، حتى يونيه ٢٠١٢ .

كما تم تخصيص عدد (٦) ست قطع أرض في ست قرى لبناء المسارح المفتوحة «الجرن» كمراكز إشعاع ثقافي ، كما قام المهندس الاستشاري/ هاني المنياوي المعروف بأعماله المميزة في العمارة البيئية ، بتصميم المسرح الأول بقرية بلاط بالوادي الجديد ، وبتكلفة أقل من مليون جنيه وحصل على القسط الأول لتصميمه. (التكلفة هنا خيالية في قلتها بالنسبة إلى بناء المسارح، وتشجع على بناء (١٠٠) مائة مسرح في مائة قرية خلال خمس سنوات.

لكن كل شيء توقف ، النشاط وحركة تخصيص أراضي أخرى في قرى أخرى وإجراءات بناء المسرح الأول ، توقف كل ذلك مع بداية حكم الإخوان في يوليه ٢٠١٢، وذلك على يد السيد/ سعد عبد الرحمن رئيس الهيئة في ذلك الوقت ، والسيد/ محمد كشك رئيس الإدارة المركزية المختصة، ولم يستطع – أو لم يرغب – كل من الوزير/ د.شاكر عبد الحميد ، والوزير/ د. صابر عرب فضلاً عن الوزير/ د. عبد الواحد النبوي ، أن يعيدوا المشروع إلى العمل.

وجاري الآن – ديسمبر ٢٠١٥ – بحث سبل استئنافه مع الرئيس الجديد للهيئة الدكتور / أبو الفضل بدران وفي ظل الوزير الجديد السيد / حلمي النمنم .

قوبل المشروع في بداية الأمر بالرفض من غالبية المدارس ، رفض المدرسين قبل الأطفال معتبرين أن الفن حرام ، وقد سجل ذلك في شهادته بجريدة المصري اليوم الدكتور/ عمار علي حسن[1]، كما سجل هو وغيره مدى التفاعل الذي حققه

(١)د. عمار علي حسن – لو تحكم مصر بطريقة مسرح الجرن – جريدة المصري اليوم – العدد ١٤١٦ تاريخ ٢٩/ ٤/ ٢٠٠٨.

النشاط في المدارس بعد ذلك ومن خلال الحفلات النهائية ، وقد وضع المشروع في خطته لمواجهة التطرف[1]. كما حظي المشروع بكتابات / شهادات العديد من الكتاب[2]، وفي المائدة المستديرة ، والمؤتمر القومي للمسرح ، ومؤتمر الثقافة في الواجهة[3].

---

(١)عمار علي حسن – خطة لمواجهة التطرف – جريدة الوطن – العدد ٤٤٥ – بتاريخ ١٨/ ٧/ ٢٠١٣ .

(٢)من هذه الكتابات / الشهادات حسب تاريخ النشر :

مسرح الجرن ينطلق في خمس قرى – عاطف النمر – جريدة الأخبار ٣٠/ ١/ ٢٠٠٨.

مسرح الجرن الأمل – د. سيد البحراوي – جريدة البديل ٩/ ٢/ ٢٠٠٨ .

قراءة في المشروع القومي «مسرح الجرن» – محمد أبو العلا السلاموني – جريدة مسرحنا – ١١/ ٢/ ٢٠٠٨.

الفن بيد اليتيم عجبة – أحمد الخميسي – جريدة أخبار الأدب – ١٧/ ٢/ ٢٠٠٨.

مسرح الجرن – يوسف القعيد – مجلة المصور – ٢٢/ ٢/ ٢٠٠٨ .

مسرح الجرن – يوسف القعيد – مجلة المصور – ٢٥/ ٤/ ٢٠٠٨ .

بصوا جواكم – نجلاء بدير – جريدة الدستور – ٤/ ٤/ ٢٠٠٨ .

بصوا جواكم – نجلاء بدير – جريدة الدستور – ٥/ ٤/ ٢٠٠٨ .

بصوا جواكم – نجلاء بدير – جريدة الدستور – ٦/ ٤/ ٢٠٠٨ .

بصوا جواكم – نجلاء بدير – جريدة الدستور – ٧/ ٤/ ٢٠٠٨ .

الجرن .. مشروع قومي يجب رعايته– الأمير أباظة– المسائية– ١٠/ ٤/ ٢٠٠٨.

الموهوبون في الضبعية – الأمير أباظة – المسائية – ١/ ٥/ ٢٠٠٨ .

مسرح الجرن في بلاط – محمود الورداني – جريدة البديل – ١٤/ ٤/ ٢٠٠٨.

مدرسة دميرة الإعدادية المشتركة– محمود الورداني– جريدة البديل في ٤/ ٦/ ٢٠٠٨ .

د. عمار علي حسن (سبقت الإشارة).

مقالات أخرى بقلم : عز الدين نجيب – جريدة القاهرة.

أبو العلا السلاموني – مسرحنا.

مدحت صفوت – البديل والدستور «الإلكتروني» .

(٣)المائدة المستديرة بالمجلس الأعلى للثقافة بتاريخ ٣٠/ ٩/ ٢٠١٢ ، أقامتها جمعية محبي الفنون الجميلة بالتعاون مع المجلس ، وترأسها د. أحمد نوار ، وأمينها أ. محمد أبو العلا السلاموني ، وحضرها ستون تقريباً من الفنانين والأدباء .. والمهتمين فيما حضرها الدكتور/ صابر عرب وزير الثقافة ووعد بالاستئناف وبالدعم الكامل للمشروع، ولكن لم يحدث. =

وكما حققت التنمية المسرحية في قرية شبرا بخوم إنجازاً ليس قليلاً في حضور كل مواطنيها العروض المسرحية .. السيدات قبل الرجال.. ، وفي التفافهم حول التجربة واعتبارها برلماناً للقرية ، ودعمهم بناء مسرح بالمجهود الذاتي ، ومشاركة الفتيات والسيدات في هذه العروض ، واستمرار التجربة طوال هذه الفترة الزمنية من عام ١٩٧٣ حتى يومنا ، وتحقيق بعض القيم والأهداف المنشودة وخلو القرية من أية مظاهر للتطرف الفكري والعنف ، فضلاً عن الخصوصية الدرامية/ الهوية وفق كتابات وشهادات العديد من الكتاب[١].

فإن التنمية الثقافية في مشروع مسرح الجرن قد حققت هي الأخرى بعض الأهداف خلال السنوات الأربع القليلة (٢٠٠٧/ ٢٠١٢) منها : مشاركة الفتيات في النشاط فيما يزيد عن نصف المشاركين، وقد مارس الأنشطة وفق المناهج المنشودة، غالبية أطفال المدارس التى اختيرت للعمل، مؤازرة واهتمام أهالي القرى بنشاط المشروع، إزالة أوهام التحريم ، كما حظيت بدعم ومناشدة أكثر من ألف مثقف مصري – بالندوة وبالمؤتمرين المذكورين – مطالبين باستتنافه.

ولعل ذلك دافعاً للمسئولين بأن تأخذ التنمية الثقافية حقاً واهتماماً ودعماً تستحقه.

المخرج / أحمد إسماعيل ٢*

صاحب فكرة المشروع- المشرف الفني العام

= المؤتمر القومي للمسرح بالمجلس الأعلى للثقافة في الفترة من ٢٧- ٢٩ مايو ٢٠١٣ ، وقد ناشد باستتناف المشروع.

مؤتمر المثقفين «الثقافة في المواجهة» بالمجلس الأعلى للثقافة في الفترة من ١ : ٣ أكتوبر ٢٠١٣ وقد ناشد هو الآخر باستتناف المشروع ودعمه.

(١)ثبت الشهادات والكتابات النقدية – المسرح القريب – سبق الإشارة إليه.

* فنان قدير بالمسرح القومي المصري.
- مؤسس ومخرج تجربة شبرا بخوم المسرحية (١٩٧٣-)
- أشرف على العديد من الدورات التدريبية للتنمية المسرحية والثقافية في هيئات مختلفة .